مع الدكتور الضبيب وكتابه آثار الشيخ محمد بن عبد الوهاب

بقلم د. عبد الستار الحلوجي
الاستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة

الدكتور احمد محمد الضبيب
آثار
الشيخ محمد بن عبد الوهاب
سجل ببليوجرافي لما نشر من مؤلفاته

لا يستطيع أحد أن يؤرخ للاسلام في العصر الحديث دون أن يستوقفه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته الاصلاحية السلفية التي أراد بها أن يعيد للاسلام صورته الاولى وأن يدفع عنه كل ما شابه من خرافات وضلالات شوهت وجهه النقي الكريم في حقبة معلومة من الزمان ، وعلى رقعة محدودة من المكان .

ولا جدال في أن محمد بن عبد الوهاب سيظل واحدا من الأعلام البارزة في تاريخ أمتنا ، وسيبقى منارة شامخة على طريق الاسلام في عصوره المتأخرة وقطعة عزيزة وغالية من تاريخ شبه الجزيرة امعربية .

ولقد حاول الشيخ ـ رحمه الله ـ أن يصوغ فكره وأن يقدمه للناس في صور شتى ، مفصلا حينا ومجملا حينا آخر ، ولم يأل جهدا في سبيل ابلاغ صوته الى مسامع الناس وتوصيل فكره الى عقولهم . ولهذا تنوعت كتاباته وتعددت وان ربطها جميعا خيط واحد هو وحدانية الله سبحانه وتعالى والعمل بما أمر به واجتناب ما نهي عنه .

والذين يتصدون للتاريخ للاسلام في العصور الحديثة أو لدراسة الدعوات الاصلاحية التي طرأت عليه عبر تاريخه الطويل لا بد لهم من الرجوع الى ما كتبه الشيخ في محاولة للتعرف على ملامح دعوته . وقد يكون من السهل على الباحث أن يظفر بالكتب الكاملة التي ألفها الشيخ ، ولكن الامر يختلف بالنسبة لما نشر له في بطون كتب أخرى وما نشر له على شكل رسائل وكتيبات ونشرات . فالحصول على هذه المؤلفات أو حتى حصرها واحصاؤها أمر لا يقدر مشقته الا من عاناه .

ولقد بحت أصواتنا من كثرة ما دعونا الى الاهتمام بالأعمال الببليوجرافية وتشجيع القائمين بها حتى نوفر على الباحثين أوقاتهم وجهودهم ليصرفوها في الدراسة بدلا من أن ينفقوها سعيا وراء تجميع ما كتب في موضوعات بحوثهم .

من أجل هذا كانت سعادتي غامرة حين أصدر الدكتور أحمد الضبيب كتابه القيم « آثار الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، سجل ببليوجرافي لما نشر من مؤلفاته » . وكان مصدر سعادتي أنه بالرغم من أن الأعمال الببليوجرافية ليس لها من الجاذبية ما يغري أساتذة الجامعة الأكاديميين بالاقبال عليها ، الا أنه من المؤكد أن مهنة المكتبات قد اكتسبت بهذا العمل صديقا جديدا له وضعه الأكاديمي ووزنه العلمي .

وأنا أعرف أن الدكتور الضبيب عميد شؤون المكتبات بجامعة الرياض . ولكن المنصب قد لا يكون كسبا للمهنة بقدر ما هو كسب لصاحبه . الا أن الدكتور الضبيب أثبت بكتابه هذا أن العمل المكتبي قد استهواه حقا ، وأن المهنة قد اكتسبته صديقا تعتز به . وهو أمر نحمده له ونغبطه عليه ونرجو له أن يستمر . ذلك أن الانسان لا ينجح في عمله ولا يبدع فيه الا اذا أحبه وتفانى فيه . ولقد كان ما أحرزه الدكتور الضبيب من نجاح في عمله كعميد للمكتبات بجامعة الرياض ينبيء عن هذا الحب الذي انعقد بينه وبين العمل الذي وكل اليه ، ثم كان مؤلفه الذي نعرض له اليوم صيغة أخرى من صيغ التعبير البليغ عن هذا الحب .

وقد جعل المؤلف كتابه في ثلاثة أبواب خصص أولها وأضخمها لما كتبه الشيخ في العقيدة ، والثاني لكتاباته في الفقه ، والثالث لما كتبه في التفسير والحديث والسيرة النبوية ، وقدم للكتاب بمقدمة شرح فيها منهجه وطريقة ترتيب مادته ، وأتبعها بلمحات من حياة الشيخ ، وكشاف لمختصرات أسماء المصادر ، ثم ذيله بملحقين خصص أولهما للشروح التي عملت على مؤلفات الشيخ والثاني لبعض مصادر ترجمته ، وختمه بكشافات للآثار والأعلام والأماكن .

وبناء الكتاب بهذا الشكل لا غبار عليه سوى أن الملحق الثاني كان ينبغي أن يستقصي مصادر ترجمة الشيخ وألا يقتصر على بعضها لأن كلمة « البعض » هذه غير محددة خاصة وأن المؤلف لم يبين لنا على أي أساس تم اختيار هذا البعض . فكان عليه أن يستوفي ما كتب عن الشيخ ان أراد تحقيق مزيد من الفائدة ، أو أن يستغني عن هذا الملحق جملة على اعتبار أن آثار الشيخ هي موضوع الكتاب وهي التي تعنيه .

وتلك ملحوظة اعتراضية أسوقها عابرا ولا أتلبث أمامها طويلا لأني أريد أن أستوقف الدكتور الضبيب عندما هو أهم .

وأود قبل كل شيء أن أسجل على نفسي اعترافا صريحا بأنني أحسست من قراءة هذا السفر الجليل أن مؤلفه قد بذل جهدا شاقا في تجميع مادته من ناحية وفي

تنظيمها من ناحية أخرى · ولقد كان موفقا في اختيار خطة للتصنيف نابعة من طبيعة المادة الغزيرة التي جمعها الا أن التوفيق خانه في بعض التفاصيل · فهو قد أفرد الباب الاول لكتابات الشيخ في العقيدة وقسمه الى ثلاثة فصول أولها للكتب والرسائل والنبذ ، وثانيها للمسائل والأجوبة وثالثها للمكاتبات · وحتى لا يلتبس لفظ الرسائل في الفصل الاول بلفظ الأجوبة في الفصل الثاني ولفظ المكاتبات في الفصل الثالث ، عرف المؤلف الأجوبة بأنها ردود الشيخ على أسئلة وجهت اليه في موضوعات العقيدة ، وعرف المكاتبات بأنها رسائله الخاصة التي بعثها الى أشخاص بأعيانهم ، ومنشوراته العامة التي وجهها الى أهالي القرى والمدن ومن يراها من المسلمين (١)·

وكنت أتمنى لو أن الدكتور الضبيب عدل عن لفظ الرسائل في عنوان الفصل الاول تجنبا لأي لبس يمكن أن يحدث في أذهان القراء · وكنت أود أيضا أن يوضح لنا ما الذي يعنيه بالنبذ في الفصل الاول ، وأن يضع أيدينا على الفرق بينها وبين المسائل في الفصل الثاني أو أن يجمعهما معا في مكان واحد تلافيا للتداخل ·

ولقد حدث ما لم يكن بد من حدوثه نتيجة لعدم وضوح الحدود بين الفصول ، فرقم « ١١١ توحيد العبادة ، نبذة كتبها جوابا على طلب » (٢) وردت في الفصل الاول على أنها نبذة ، وفي الوقت نفسه كان يمكن أن تأتي مع الأجوبة في الفصل الثاني ·

وهناك رسالتان متشابهتان احداهما تحمل رقم ٢٨٩ وهي موجهة الى شخص يدعى حسن (٣) ، والأخرى تحمل رقم ٣٨٠ وهي موجهة الى شخص يدعى سليمان (٤) · ولم يحقق المؤلف هذين الاسمين ، ولا هو عامل الرسالتين معاملة واحدة ، وانما وضع الاولى في الفصل الثاني الخاص بالمسائل والأجوبة ووضع الثانية في الفصل الثالث الخاص بالمكاتبات ، وكان ينبغي وضعهما معا في موضع واحد ·

ولقد كان بوسع المؤلف أن يعفي نفسه من هذا الحرج لو أنه قسم كل باب من الأبواب تقسيما موضوعيا بدلا من هذا التقسيم الذي اصطنعه لنفسه والتزم فيه الترتيب الهجائي فأوقعه في خلط واضطراب وسبب له غير قليل من المعاناة · ويكفي أن نأخذ موضوعا جزئيا كالقبور ــ مثلا ــ وما كتبه الشيخ عن حكم زيارتها والتمسح بها والصلاة عندها ، وموضع ذلك كله في الفصل الثاني من الباب الاول ، فماذا نجد ؟ نجد الصلاة عند القبر تحت رقم ٣٠٩ (٥) وقصد القبر للدعاء عنده يأخذ رقم ٣١٣ (٦) ولمس القبر والتمسح به والصلاة عنده والنذر للقبور يأخذ الرقمين ٣١٦.

٣١٧ (٧) . أما الأرقام ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ فقد شغلتها موضوعات متنوعة كالعلم وفرضية طلبه ، والصبر مع الفقر والشكر مع الغنى ، ومعنى لا اله الا الله . وهنا نتساءل : ألم يكن من الأفضل جمع الموضوع الواحد في مكان واحد بدلا من تجميع المسائل والأجوبة في مختلف الموضوعات المتصلة بالعقيدة معا وترتيبها هجائيا بالعنوان ؟

وثمة نقطة أخرى في موضوع التصنيف وهي ترتيب المصادر داخل الأبواب ، فقد آثر المؤلف « أن يكون ترتيبا زمنيا يبدأ بأقدم المصادر مع التزام التسلسل الزمني في الطبعات المتعددة » (٧) . وهذه الطريقة في الترتيب مقبولة ولكنها تتعثر أمام الطبعات التي نشرت بدون تاريخ ، وقد اضطر المؤلف أن يضعها في نهاية الطبعات المؤرخة كما فعل في كتاب « كشف الشبهات » رقم ١٨٨ ــ ٢٠٢ (٨) .

ويتصل بنقطة الترتيب هذه ترتيب المكاتبات الخاصة التي وجهها الشيخ الى أشخاص بأعيانهم ، فقد رتبها المؤلف (في الفصل الثالث من الباب الاول) ترتيبا هجائيا بالعنوان ، وجميع العناوين تبدأ بكلمة « رسالة » ولو أنه رتبها هجائيا بأسماء البلاد التي وجهت كما رتب الرسائل العامة الموجهة الى الأقطار والبلدان هجائيا بأسماء البلاد التي وجهت اليها لكان ذلك أجدى وأنفع وأيسر في الاستعمال .

تلك ملاحظات عامة على الخطة التي انتهجها المؤلف في تنظيم مادة كتابه . فاذا انتقلنا الى التفاصيل وجدنا هنات يسيرة ينبغي تداركها ، ونذكر منها ــ على سبيل المثال ــ أن الذبح للجن وحكمه ورد مرة في باب العقيدة (فصل المسائل والأجوبة) (٩) ومرة أخرى في باب الفقه (فصل الفتاوى والأجوبة) (١٠) وأن مسألة الخمس وردت في باب العقيدة (فصل المكاتبات) (١١) ووردت أيضا في باب الفقه (فصل الفتاوى والأجوبة) (١٢) . ومن أساسيات التصنيف أن الكتابات التي تعالج موضوعا واحدا ينبغي أن تجمع في مكان واحد .

وأنتقل بعد ذلك الى قضايا الفهرسة في الكتاب وهي كثيرة . ولا يفوتني في البداية أن أعرب عن تقديري للمؤلف لاستعماله الاحالات ولحرصه على ذكر أوائل نصوص الرسائل والنبذ والمكاتبات التي يوردها « حتى يأمن القارىء الخلط بين المواد عند تشابه الموضوع » (١٣) .

وأرجو بعد ذلك أن يأذن لي الدكتور الضبيب في أن أختلف معه في الأمور التالية :

أولا : تكرار عنوان العمل الواحد اذا تعددت طبعاته لم يكن له ما يبرره ، وكا نيكفي الاستغناء عنه بشرطتين هكذا : ـ ـ ٠ وأظن أن الدكتور الضبيب يتفق معي في أن التكرار يكون ثقيلا عندما يطول الكلام المكرر كما في أرقام ٨٦٥ ـ ٧٦٧ ، ٩١٦ ـ ٩١٨ (١٤) ، وعندما يقع كثيرا كما في أرقام ٤٤٣ ـ ٤٤٩ ، ٤٧٦ ـ ٤٨٢، ٧٣٧ ـ ٧٤٢ ـ ٧٤٣ ـ ٧٤٩ ، ٨٩٦ ـ ٩٠٤ (١٥) ٠

ثانيا : كثير من العناوين غير واضحة الدلالة ٠ وقد اعترف المؤلف بأنه قام « بوضع عناوين لكثير من أجزاء المادة التي لم يكن لها عناوين سابقة معروفة ، وهي عناوين مأخوذة من واقع الموضوعات التي تعالجها المواد » (١٦) ٠ وأشهد أنه أصاب في كثير من المواضع ولكن التوفيق أخطأه في بعض المواضع فجاءت العناوين غير واضحة الدلالة مثل :

أربع قواعد الدين (١٧) ، ثلاث مسائل يجب تعلمها على كل مسلم ومسلمة (١٨) ، ستة أصول عظيمة (١٩) ٠

فمثل هذه العناوين لا توحي بما وراءها كما هو الحال في عناوين أخرى مثل : توحيد العبادة ، الوصية ، الوقف ، الأذان ، البيع ٠٠٠ الخ ٠

وثمة عناوين أخرى ينبغي أن تقلب لتبدأ بالكلمة الدالة ، فاستعمال : الكذب على الله أولى من استعمال : النهي عن الكذب على الله (٢٠) ، والتعبير بـ : حفظ القرآن ونسيانه أفضل من التعبير بـ : وعيد من حفظ القرآن ثم نسيه (٢١) ٠

ثالثا : بعض المصادر لم ترد في « قائمة المصادر ومختصراتها » المذكورة في أول الكتاب ، وقد نتج عن ذلك ذكر المصدر وبياناته كاملة في كل مرة يرد فيها دون اختصار كما في أرقام ١٨ ، ٤٥ ـ ٥٥ ، ١٧ ـ ١٩٨ ، ٥٥٥ ، ٥٦٤ ، ٥٧٠ ـ ٥٧٧ (٢٢) ٠

رابعا : الالتزام بذكر موضوعات الرسائل العامة في الفصل الثالث من الباب الاول ، والتحلل من هذا الالتزام بالنسبة لكثير من الرسائل الخاصة في نفس الفصل (٢٣) غير مقبول ٠

خامسا : عدم التزام قواعد الفهرسة في بعض المواضع وخاصة في الملحق الثاني الذي سجل فيه المؤلف بعض مصادر ترجمة الشيخ (٤٢) ٠ ومن الأمثلة على ذلك :

أ ـ النص على الطبعة الاولى أحيانا (كما في أرقام ٩٣١ ، ٩٣٤ ، ٩٣٩ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، وعدم ذكرها في أغلب الأحيان .

ب ـ ذكر اسم الناشر قبل مكان النشر في رقم ١٣٦ .

جـ ـ ذكر اسم المطبعة مع اسم الناشر في بعض الأحيان (كما في رقم ٩٣٤) واهماله في الغالب والأعم .

د ـ اهمال تاريخ النشر في رقم ٩٣٨ .

بقيت ملاحظتان شكليتان أضعهما بين يدي الدكتور الضبيب رغبة مني في أن تصدر الطبعة التالية من كتابه في صورة مشرفة تليق بموضوعه وبمؤلفه .

الملاحظة الاولى : تتصل بالحواشي Foot Notes الموجودة في الكتاب . فبعضها مفيد حقا لأنه يوضح نصا أو يثبت خلافا بين النسخ كما في ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٩ ، ولكن أكثرها لا محل له من الاعراب كما يقول النحاة . ومثال ذلك ما نجده في الصفحات ٥٩ ـ ٦١ ، ٦٣ ـ ٦٦ ، ١٢٨ ـ ١٣٠ ، ١٤٧ ـ ١٥٢ وكثير غيرها . فذكر طبعة ما من كتاب على أنها تشتمل على مسألة معينة وعدم ذكر الطبعات الأخرى للكتاب يعني أن هذه المسألة لم ترد الا في الطبعة المنصوص عليها وذلك أمر لا يحتاج الى توضيح في الحاشية .

أما الملاحظة الثانية ، فتتصل بالاخراج الطباعي . فالرسائل الموجهة الى الأقطار والبلدان في الباب الاول رتبت بأسماء البلدان التي وجهت تلك الرسائل الى أهلها ، وكان ينبغي أن تطبع أسماء البلدان بحروف أكبر أو بطريقة متميزة . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الفصل الاول من الباب الثالث ، فقد رتبت كتابات الشيخ في التفسير بحسب ترتيب سور القرآن الكريم في المصحف وكان ينبغي أن تكون أسماء السور التي تم الترتيب على أساسها متميزة في حروفها عن بقية النص .

وبعد ،

فعلى الرغم من كل هذه الملاحظات يظل الكتاب عملا ببليوجرافيا ضخما بذل فيه صاحبه من الجهد والوقت ما يستحق عليه الشكر والثناء . فله مني تحية تقدير واعزاز، ورجاء بألا يحرم المكتبة العربية من مثل هذه الأعمال الببليوجرافية القيمة؟.

الهوامش والمصـــادر

(١) المقدمة ، ص ٨ .

(٢) ص ٣٨ .

(٣) ص ٦٣ .

(٤) ص ٧٩ .

(٥) ص ٦٦ .

(٦) ص ٦٧ .

(٧) ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٨) ص ١٠ .

(٩) ص ٤٨ ـ ٥٠ .

(١٠) رقم ٣٠٥ ، ص ٦٥ .

(١١) رقم ٦٢٣ ، ص ١١٩ .

(١٢) رقم ٣٨٠ ، ص ٩ ٧.

(١٣) رقم ٦٣٢ ، ص ١٢٠ .

(١٤) ص ٩ .

(١٥) ص ١٣٨ ، ١٥٩ ـ ١٦١ .

(١٦) ص ٨٩ ـ ٩٠ ، ٩٥ ، ١٣٥ ـ ١٣٦ ، ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(١٧) ص ٩ .

(١٨) رقم ٤ ـ ٢٢ ، ص ٢٣ ـ ٢٦ .

(١٩) رقم ١١٧ ـ ١٢٤ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢٠) رقم ١٥٥ ـ ١٦٢ ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢١) رقم ٣٣٤ ، ص ٧٠ .

(٢٢) رقم ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ص ٧٠ ، ٧١ .

(٢٣) ص ٢٥ ، ٢٨ ـ ٣٠ ، ٤٩ ـ ٥٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ـ ١١٤

(٢٤) كما في أرقام ٣٣٧ ـ ٣٦٠ ، ص ٧٢ ـ ٧٥ .

(٢٥) ص ١٦٣ ـ ١٦٦ .